

لم يكن متأثراً بأحكام سابقة وأغراض خفية حتى على أصحابها الذين يتجنون ويظلمون وهم لا يشعرون، أفلم يكن رينان - مثلاً - من وجوه التاريخ الوجيهة التي زارت الاماكن المقدسة وشهدت الارض التي بارك الله حولها؟ بل ولقد كتب في ذلك صحفاً خالدة في تاريخ الفكر الاوربي، وانه ليستطرد إلى العالم القديم أيام المسيح (عليه السلام) حين كانت تلك البلاد عامرة بآتيها رزقها رغداً من كل مكان، تأكل من فوقها ومن تحت أرجلها إلى حد أن الاثراء كان ميزة ربما نزل عنها صاحبها اختياراً، اذ لافرق يذكر بين اثنين أحدهما غنى والآخر فقير، فيم اذن تبعة الغنى وتحمل أعباء ليس ثم ما يدعوا إلى تحملها الذي لا يعطى الانسان شيئاً يحرمه غيره من بني الانسان، ولكننا في نهاية القرن التاسع عشر، اذ نرتاد تلك البلاد، لانجد الا الحرمان: الجوع والمرض والجهل وملحقاتها التي تتعلق بها تعلق الظل بصاحبه، على أنه لا يفوتك أن تلاحظ مع هذا الشقاء الانساني في أبشع أشكاله أن النساء في ((الناصره)) جميلات فانتات رصيات الخلق كريمات طبيبات، أفترأها حقاً كرامة شاء الله أن يكرم بها السيدة العذراء كما فطن لذلك أحد كتاب القرن السادس الميلادي وغيره ممن راعتهم تلك الظاهرة؟ ان ((رينان)) ليتساءل هذا التساؤل على الرغم من اعلانه أنه كفر بالمسيحية، أجل ولكنه مؤمن بالمسيح مرتبط بأخلاقه، وهو في واقع الأمر لم يكفر الا اضطراراً اذ استمع إلى حديث عقله، آه لو استطاع أن يلغى هذا العقل المشؤوم، اذن لعاش سعيداً ومات سعيداً غير من النصرى الصادقين المخلصين.

و المهم فيما نحن فيه أنه علل هذا الاجداب بعد الاخصاب، والفقير بعد الغنى، والشؤم بعد اليمن، بتلك الكارثة التي ابتلى الله بها الانسانية، فاستولى المسلمون على بيت المقدس، فكانت النتيجة الطبيعية أن يغيض ماء الحياة جراء هذا البلاء العظيم.

قلت: مدى علمي أن ((رينان)) من المفكرين الاحرار المؤرخين الجادين الذين لايعنيهم الا كشف الحقيقة، سواء لديه أرضى الراضون أم سخط الساخطون، كان ((مثالياً علمياً)) يريد العلم على أن يقوم بين الناس مقام المعتقدات القديمة البالية التي لم يعد في الامكان حمل الناس عليها بعد أن أصبحت مقولاتها كذباً صراحياً يستحيل